بسم الله الرحمن الرحيم

مشروع التّغيير ومركزيّته في التّنمية عند مالك بن نبي

د. حسام الدين مخلوف

كلية العلوم الإسلامية -جامعة الوادي(الجزائر)

makhlouf-houssemeddine@univ-eloued.dz

الملخص

كان مالك بن نبي مدركًا لأبعاد التّخلّف والانحطاط الذي تعاني منه الأمّة الإسلاميّة، واعيًا بأسبابه، عالمًا بعوامل التّنمية والنّهوض، مبرزًا لمحرّكها المتلخّص في التغيير الفردي والمجتمعي والأممي، منطلقًا من القرآن الكريم الذي حدّد معالمه وأرسى دعائمه في نسقٍ كاملٍ متكاملٍ، فنقله من زاوية النّظر والفكر إلى معترك الحركة والعمل والنّشاط المؤثّر، تماشيًا مع السنن الكونية التي لا تحابي أحدًا، وأخذًا بأسباب المدنيّة الحقّة التي تصنع التّاريخ وتغيّر مجراه، وتبني المستقبل وتحقّق الحضارة الدنيويّة والسّعادة الأخرويّة، ولكنّ الإشكالية العلمية والواقعية -اليوم- تكمن في سوء فهم مقاصد الإسلام في رسمه لعلاقة الإنسان بالخالق والكون والزمن، بل ويذهب مالك إلى أبعد من ذلك، فهو -من منظوره- لا يدعو إلى الوصول إلى ذروة الدّورة الحضاريّة فحسب، وإنما يسعى إلى المحافظة على التّنمية المستدامة والقمّة الرياديّة في كافة المجالات الحياتية، ولهذا جاءت هذه الدّراسة التّحليلية لتسلّط الضّوء على مشروع التغيير ومركزيّته في التّنمية عند مالك بن نبي، من خلال خطّة تضمّنت مقدمة ومبحثين وخاتمة، تطرّقنا

في المبحث الأوّل إلى مفهوم التّغيير وفقهه عند مالك بن نبي، في حين ذكرنا في المبحث الثّاني نقد مناهج التغيير عند مالك بن نبي، ليُختتم البحث بأهمّ النّتائج والتّوصيات.

الكلمات المفتاحية: التّغيير، التّنمية، مالك بن نبي.

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسَّلام على رسول الله، وبعد، فإنَّ الإنسان هو العنصر الفاعل والفعّال في عملية التغيير في مختلف مجالات الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وإنَّ من أهم ركائز حياة الشعوب والمجتمعات والأمم تلك العمليات التغييرية المتمثلة في ترسيخ القيم، وتصحيح الأفكار، وإتقان العمل، وتحقيق العمارة، وتفعيل الحضارة، ولقد ارتبط وجود الأمة الإسلامية في ساحة الفعل الحضاري بوجود مصدرها الأول، ألا وهو القرآن الكريم الذي حدّد معالم هذا التغيير وأرسى دعائمه في نسقٍ كاملٍ متكاملٍ مع السنن الكونية التي لا تتبدل، والقوانين الثابتة التي لا تتغير، بل تجري عليها الشؤون المتغيرة للبشر، وعلى حسبها تكون الآثار والنتائج الدنيوية والأخروية، وقد استطاع النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم أن يغيّر حال الناس فأخرجهم من ساحة العدم الحضاري إلى رحاب الوجود الحضاري، كما قال الله عزَّ وجلَّ: چٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ چ [إبراهيم:1]، ولهذا يقول السيد قطب في سياق تفسيره لهذه الآية الكريمة: "لتخرج هذه البشرية من الظلمات -ظلمات الوهم والخرافة وظلمات الأوضاع والتقاليد وظلمات الحيرة في تيه الأرباب المتفرقة وفي اضطراب التصورات والقيم والموازين- لتخرج البشرية من هذه الظلمات كلها إلى النور الذي يكشف هذه الظلمات، يكشفها في عالم الضمير، وفي دنيا التفكير، ثم يكشفها في واقع الحياة والقيم والأوضاع والتقاليد والإيمان بالله وحده إلهًا وربًّا، منهج حياة كامل، لا مجرّد عقيدة تغمر الضمير وتسكب فيه النور، منهج حياة يقوم على قاعدة العبودية لله... والتخلّص من ربوبيات العبيد... وفي هذا المنهج من المواءمة مع الفطرة البشرية ومع الحاجات الحقيقية لهذه الفطرة ما يملأ الحياة سعادة ونورًا وطمأنينة وراحة، كما أنَّ فيها من الاستقرار والثبات عاصمًا من التقلّبات والتخبّطات التي تتعرّض لها المجتمعات التي تخضع لربوبية العبيد وحاكمية العبيد ومناهج العبيد في السياسة والحكم، والاقتصاد والاجتماع، وفي الخلق والسلوك، وفي العادات والتقاليد"[1]. ولهذا فقد كانت معظم أعمال مالك بن نبي تتمحور حول مشروع التّغيير ومركزيته، بل تكاد تكون مشكلة التغيير هي المشكلة الأساسية في فكر مالك بن نبي؛ خاصة وأنها الوجه الآخر لمشكلة الحضارة، ولذلك نجدها تحتلّ الصدارة في مؤلفاته ومحاضراته، وقد كان مالك بن نبي مدركًا لمعنى

[1] سيد قطب، في ظلال القرآن، ط17، دار الشروق، القاهرة، 1412هـ، ج4، ص2085.

التغيير وشروطه ومناهجه إدراكًا جيّدًا، وهذا ما مكّنه من تحليل المناهج التغيرية تحليلًا علميًّا دقيقًا[1]، وهذا ما سيحاول أن يعالجه هذا البحث من خلال ما يلي:

المبحث الأول: مفهوم التّغييروفقهه عند مالك بن نبي

المطلب الأول: ترجمة مالك بن نبي:

هو أحد أعلام الفكر الإسلامي، وأشهر مفكري الجزائر في القرن العشرين، وقد وُلد مالك بن نبي يوم 1 يناير1905م في مدينة قسنطينة، وعاش مع أسرته الإسلاميّة المحافظة؛ حيث كان والده يعمل في مجال القضاء الإسلاميّ، وقد درس مالك القرآن وهو صغير، ثم انتقل ليكمل تعليمه الابتدائيّ في المدرسة الفرنسيّة، ثم سافر مع أحد أصدقائه المقربين إلى فرنسا، وهو يبلغ من العمر عشرين عامًا، إلّا أنّ رحلته كانت تجربةً محبطةً له بكل المقاييس، وعاد بعد ذلك إلى مدينته التي نشأ فيها، وعمل بعد ذلك في محكمة آفلو، واستطاع في تلك الفترة أن يعلم الكثير من مجريات الأحداث في البلاد والعالم، وبحلول عام 1928م استقال مالك من وظيفته بعد شجار دار بينه وبين أحد الكتّاب الفرنسيين التابعيين للمحكمة المدنيّة. ثم انتقل سنة 1930م إلى فرنسا، وتمكّن من الالتحاق بمدرسة اللاسلكي، وتخرّج من المدرسة كمساعد مهندس، وتزوّج بعدها من فتاة فرنسيّة سنة 1931م، وقد أسلمت على يديه واتّخذت من اسم خديجة اسمًا لها، وأقام في فرنسا لغاية سنة 1956م، وشرعت له فرنسا في ذلك الوقت أن يتحدّث حول العديد من القضايا، واستطاع أن يكتب الكثير من المؤلفات، بل واستطاع أن يصير كاتبًا متخصّصًا في شؤون العالم الإسلامي ومشكلات الحضارة الإسلامية، وبحلول الثورة الجزائريّة هرب مالك من فرنسا إلى مصر، حيث تفرّغ هنالك للتأليف أيضًا، ثم عاد إلى الجزائر سنة 1963م أين عُيّن مديرًا عامًا للتعليم العالي، ولكنه استقال من منصبه عام 1967م، ليتفرّغ للعمل الفكري إلى أن توفي يوم 31 أكتوبر 1973م، ودُفن بمقبرة سيدي محمد -رحمه الله-[2].

ومن أبرز مؤلفاته: الظاهرة القرآنية. شروط النهضة. وجهة العالم الإسلامي. الفكرة الإفريقية الآسيوية. فكرة كومنولث إسلامي. مشكلة الثقافة. الصراع الفكري في البلاد المستعمَرة. حديث في البناء الجديد. تأملات. في مهبِّ المعركة. آفاق جزائرية. القضايا الكبرى. إنتاج المستشرقين. الإسلام والديمقراطية.

[1] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ط2، عالم الأفكار. الجزائر، 2007م، ص76-77.

[2] هشام شراد، فقه الواقع العالمي في فكر مالك بن نبي، الملتقى الدولي الثالث: فقه الواقع المستقبل التجديد في النهضة الإسلامية، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سطيف، مركز الشهاب للدراسات الإسلامية، سطيف، ص147.

مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين. بين الرشاد والتيه. المسلم في عالم الاقتصاد. من أجل التغيير. ميلاد مجتمع.

المطلب الثاني: مفهوم التّغييروفقهه عند مالك بن نبي:

أولا: مفهوم التّغيير

1_ لغة: يرجع أصل التغيير في القواميس العربية إلى أصل التحرك والانتقال من حال إلى حال أخرى[1].

2_ اصطلاحا: هو القيام بعملية الانتقال والتحوّل من حال إلى حال أحسن، وتستدعي هذه العملية موقفًا من الحال المُنتقَل منها، وتصوّرًا عن المكان المُنتقَل إليه، واستحضارًا لطريقة الانتقال وآلياته، مع مراعاة وتوقّع أيّ خلل أثناء عملية التحوّل، وكيفية إصلاحه من أجل سلامة وسلاسة الانتقال في إطار تحقيق الأهداف المرسومة[2].

ولا شكّ أنّ التغيير ضرورة ملحّة للخروج من وضعيه الرّكود التي يعيشها العالم الإسلامي، لكنّ الآراء تختلف حول طبيعة هذا التغيير ومنهجه، فهل يتركّز التغيير على الجانب الاجتماعي أو الفردي؟

ثانيا: فقه التغييرعند مالك بن نبي:

يرى مالك بن نبي أنَّ تغيير الإنسان[3] هو الشرط الجوهري لكلّ تحوّل اجتماعي رشيد، وهو المنطلق الأساس لكل تغيير اجتماعي[4].

وأنَّ ظاهرية التغيير لا تجدي نفعًا إذا لم تصحب بتغيير الباطن، وتبقى عديمة الجدوى إذا لم تنفذ إلى الإنسان ذاته فتغيره تغييرًا جذريًّا؛ لأنه منشأ جميع الهزائم والانتصارات[5].

---

[1] عبد الرحمن الطيبي، سؤال النهضة وإشكالية الاستدراك الذاتي مقاربة مدرسة المقاصد، مجلة المقدمة الجزائرية، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العدد الأول، نوفمبر 2017م، ص149-150.

[2] انظر، المرجع نفسه، ص150.

[3] ذلك التغيير الجذري الشامل لكل الجوانب: العقدية، الثقافية، الاجتماعية، السياسية، الاقتصادية، انظر، عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص39.

[4] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص39.

[5] انظر، المرجع نفسه، ص108.

وأنَّ معيار نجاح أيّ حضارة وتحقيق مشروع النهضة لا يتمثّل في تغيير الوجه المادي للمجتمع والمظاهر التكديسية الماديّة بقدر ما يتمثّل في تغيير جوهر الإنسان وبنائه البناء الصحيح، فيصير الإنسان الصانع للحضارة[1].

وينطلق في ذلك كلّه من هدي القرآن الكريم، من قوله تعالى: ﭽﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﭼ [الرعد:11]، وقوله: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭼ [الأنفال: 53].

فيرى أنَّ محيطنا الاجتماعي بحاجة إلى فهم الآيتين السابقتين فهمًا صحيحًا حتى يغيّر ما بنفسه في الاتجاه السليم، ويحذر من الكفر بأنعم الله، ولذلك عليه أن يغيّر نفسيات أبناء الأمة في اتجاه مكارم الأخلاق، وعقائد التوحيد، والكف عن المعاصي والموبقات. وكما يقرّر القرآن الكريم حتمية انحلال الدول وسقوطها، فهو يقرّر -أيضًا- قدرة أيّة أمّة أو جماعة في أن تعود باستمرار لكي تنشأ دولة أخرى أو تمارس تجربة جديدة أو تتولى زمام القيادة الحضارية بمجرّد أن تستكمل الشروط اللازمة لذلك، وأولها عملية التغيير الداخلي التي أكّد القرآن الكريم على حدّها الإيجابي والسّلبي في الآيتين السابقتين، ويمتدّ هذا التغيير الداخلي إلى كافة المجالات الأخلاقية وسائر المكونات النفسية الأساسية، وكلّ العلاقات الداخلية مع الذات ومع الآخرين، والتي تمكّن الإنسان فردًا وجماعة من مواجهة حركة التاريخ[2].
ويقرّر القرآن الكريم -أيضًا- مبدأ التغيير الذاتي مقابل حتمية السقوط والمداولة كوسيلة للاستعادة، وليس الاستمرار؛ لأنه ليس بإمكان أيّة جماعة إنسانية -ألبتة- أن تبقى متوترة الإرادة في مواجهة التحديّات الدائمة قرنًا بعد قرن، دون أن تضعف أو تغفل أو تفقد توترها هذا، بل تتخلّى نتيجة الكلل والضعف الذي يصيبها عن مكانها المتقدّم للجماعة الأكثر استعدادًا وحيويةً وتوترًا، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أنّ الإسلام يمنح الإرادة البشرية فرصتها في صياغة المصير بالتشبث به أو استعادته إذا ما أفلس من بين أيديها. وهكذا يعود الإنسان في الإسلام لينتصر على الحتميات وليستعيد قدرته الفطرية على التجدّد والتطوّر والإبداع[3].

ثالثا: مرتكزات فقه التغيير عند مالك بن نبي:

إنَّ مشكلة التنمية عند مالك بن نبي تتطابق مع مشكلة الحضارة، وإنَّ التغيير ما هو إلا عملية الانتقال من التخلّف والانحطاط إلى التنمية والحضارة، فلا تنمية ولا حضارة بدون إرادة التغيير، ولا تتكوّن

---

[1] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص108.

[2] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط1، مصر، ص89.

[3] عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، مكتبة 30 تموز، العراق، 1985م، ص263.

الحضارة إلا إذا اجتمعت العناصر الثلاثة الآتية: الإنسان والتراب والزمن، بالإضافة إلى الفكرة الدينية التي تضمن تفاعل هذه العناصر بينها تفاعلًا حقيقيًّا[1].

ويجب بناء الإنسان الذي يمشي في التاريخ مستخدمًا التراب والزمن والمواهب في بناء أهدافه الكبرى[2]. ولا يمكن للفرد أن يؤثر في المجتمع وأن يغيّره إلا بثلاث مرتكزات أساسية، هي:

1) الفكر.
2) العمل.
3) المال.

1_ التغيير الفكري:

إنَّ المسلم اليوم مسلوب الحضارة لم يعد قادرا على إنجاز عمل محضر إلا إذا تغير تفكيره، وإنَّ المشكلة التغيرية في المجتمع الإسلامي تكمن في الإنسان نفسه وليس في الأطر العامة المحيطة به، فالأفكار تؤثر في حركية المجتمع كعوامل تعوق تحرك الفرد والنمو الاجتماعي، وإنَّ التربية في إطار طرح المبررات في المجتمع وغرسها في الفكر وتمثلها في الوجدان يؤدي إلى تكوين التوتر الحيوي في تركيبه للفرد والمجتمع والتوجّه نحو الفعل والنشاط المغير.

ولهذا اشترط ابن نبي توافر الفعالية في كثير من الأنشطة الأساسية لكي يتم التغيير في أحسن صورة، ولكي تنتج التربية قيم الفعالية في الفرد والجماعة عليها أن تغرس القيم الأخلاقية، وأن تستثمر المواهب والقدرات، وأن تكون الإطار الاجتماعي الإيجابي، وتنمي الإرادة في صناعة التاريخ[3].

ويشير مالك بن نبي إلى أنّ مشكلة كل شعب هي في فهمه لمشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها[4].

ففي عصر الإلحاد والمادية يجدر بنا العودة إلى العقيدة النقية، لأنّ التجربة الإيمانية تقوي الحضارة وتحصنها وتدعمها ببعدين أساسيين:

---

[1] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص228.

[2] مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة مسقاوي وشاهين، دار الفكر، ط3، 1969م، ص113-114.

[3] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص98.

[4] مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، المكتبة العصرية، بيروت، 1959م، ص14.

- أولهما يحقق الانسجام مع نواميس الكون.
- وثانيهما يعطيها قدرات إبداعية أكثر وأعمق تتفجر على أيدي أناس يشعرون بمسؤولياتهم، ويعانون يقظة ضمائرهم، ويسابقون الزمن في عطائهم؛ لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر.

وفي عصر الصراع الفكري ينبغي بناء صرح ثقافي يصمد أمام الأعاصير، كما ينبغي تحصين الإنسان بتخليه عن القابلية للاستعمار، واللفظية، والافتخار بالماضي، والروح الجدالية، والتبرير، والشيئية، والتكديس، والاضطراب الفكري والسلوكي، وتحلّيه بالفعالية، والروح العملية، والاستناد إلى الحكمة والبصيرة في الفكر والعمل[1].

وهذه الرؤية المتميزة في التغيير الفكري تتلخص فيما يلي:

- الرؤية الحضارية الشاملة التي تتجاوز الرؤى التجزيئية والنسبية
- الرؤية الإنسانية التي تحدد ملامح مشكلات البشرية
- الرؤية السننية التي تفسر عوامل بناء وهدم الحضارات[2].

2_ التغيير العملي:

ألحَّ مالك بن نبي على الفعالية والبناء الحضاري وعلى ربط منطق الفكرة بمنطق العمل من أجل القضاء على عقمنا الاجتماعي الذي جعلنا نتكلم تبعا لمبادئ القرآن الكريم دون أن نعيش وفقها، وجعل سياستنا تجهل وسائلها وثقافتنا لا تعرف مثلها العليا ولا كيف تجسدها في الواقع[3].

وقد وافقه الدكتور سليمان الخطيب على هذا فيقول: "وهكذا يتبين أنَّ مالك بن نبي يأخذنا إلى مقارنة هذا الوضع المعاصر بحال الجيل الأول من المسلمين حيث ارتباط الفكرة بتطبيقها العملي، بعد أن التزم بها المسلم في تكوينه العقدي والأخلاقي، من خلال علاقة متبادلة بين الفكرة وسندها المحسوس وهو الإنسان، وكيف أن هذا لا يحدث في وقتنا الحاضر... فديننا الحنيف هو الذي علمنا الفعالية، علّمنا أن نقول لنفعل، وألا نغرم بالألفاظ بقدر ما نعمل على تحقيق المثل الإسلامية في واقع الناس، فالقرآن والسنة من خلال مبدأ اقتران النظر بالعمل كما تؤكد أقوال ابن نبي قادران دوما على أن يمكنا المسلم في

[1] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص110.

[2] بدر الدين زواقة، سؤال النهضة بين شروط مالك بن نبي وقانون جاسم سلطان مقاربة في نظريات واستراتيجيات التغيير الاجتماعي، أعمال المشروع الفكري للشيخ محمد الغزالي، جمع وإعداد: عتيقة نابتي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مركز الشهاب للبحوث والدراسات، الجزائر، الوطن اليوم، ص258.

[3] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص111-112.

أية مرحلة من المراحل التاريخية من العودة إلى داخل الحضارة، حيث يقدمان له باستمرار غذاء متجدّدًا ومتجاوبًا مع فطرته من جانب، ومع أي مرحلة من مراحل الرقي العقلي يستطيع الوصول إليها من جانب آخر"[1].

ولهذا يعرض مالك بن نبي مفهومه للتغيير العملي بما يتوافق وفلسفته العامة حول عدم حركية المسلم وحيويّته، فيقف متذمّرًا من حالة الإنسان بفقره الروحي، وجمود تقاليده المميتة لحركة الاجتهاد والعمل، والفاقدة لهزّة القلب التي ترتفع بالإنسان فوق الركود القاتل، بل حتى العلم بالنسبة إلى بعض المسلمين لم يعد آلة للنهضة، بقدر ما هو زينة وترف. وحتى الحركة الحديثة التي اقتبست بعض العلم من جامعات الغرب لم يكن وسيلة للإقلاع، بل كان طريقًا إلى المظهرية الجوفاء. وكذلك الشعائر التعبدية والدينية التي لم يستطع المسلم أن يصحب مفعولها ومقاصدها إلى خارج المسجد وميادين العمل، ولهذا فمحاولة التغيير والإصلاح لم تتمكّن -للأسف- من تقديم العلاج الشافي لهذه الأوضاع بسبب تعليقها بالمنابر وحصرها في قاعات الدراسة والعبادة، ولم ينزل بها إلى الأماكن التي تكثر فيها العيوب الاجتماعية والتي يجب إصلاحها؛ ولذلك فإنّه وإن تمكّن من إحداث نهضة فإنه حرمها من كل توجيه منهجي وعملي[2].

3_ التغيير المالي:

وفي عصر التكتلات الاقتصادية يدعو مالك بن نبي إلى بعث تكتّل عربيّ ثمّ إسلاميّ يحقّق الاتفاق الذاتي، ويكفل القوت لكلّ فم، والعمل لكلّ فاعل، ويرتكز على الاستثمار الاجتماعي بدلا من الاستثمار المالي، فالتنمية الاقتصادية التي لا تأخذ الإنسان بعين الاعتبار تبوء حتما بالفشل كما يرى -مالك بن نبي-، فالنهضة يجب أن تتضمن الجانب التربوي الذي يجعل من الإنسان القيمة الاقتصادية الأولى التي تتحقق بها خطة التنمية.

ولهذا فعلى العالم المتخلف أن يغير وجهة الاستثمار حتى يتخلص من رواسب التخلف التي لحقت به في السنين الأخيرة، وأن يغير من مفهومه ليحوله من "العمل نتاج الاستثمار" إلى "الاستثمار نتاج عمل". وعليه فالمسلم اليوم مطالب بأن ينظر إلى الأمور نظرة إيجابية تأخذ بعين الاعتبار مسلمتين اقتصاديتين:

- لقمة العيش حق لكل فم.

[1] سليمان الخطيب، رؤية حضارية للمجتمع الإسلامي المعاصر عند مالك بن نبي، ملتقى الفكر الإسلامي الثالث والعشرين، تبسة، ص16.
[2] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص103-104.

- العمل واجب على كل ساعد[1].

ولقد وجد العالم الإسلامي اقتصاده مقتصرًا على الاستهلاك بدل الإنتاج. وقد صنع الاستعمار من الرجل العربي المسلم رجلا لا يفكر إلا في رغباته المادية، ولا يفكر أبدًا في الوسائل التي تمكّنه من الخروج من ورطته، مقلّدًا حاجات غيره، وبذلك اتجه نحو تكديس الأشياء بدل البناء.

وظاهرة التكديس -في نظر مالك بن نبي- أدّت إلى التمدّن لا إلى الحضارة، وهذا التمدّن يمكن صناعته في لحظة معيّنة من الزمن، لكن رغم ذلك سنظلّ نحمل في ذواتنا أفكارًا لا تحرّك المجتمع، وعقلًا ضيّقًا لا يتعدّى الأفق، ولا نبني الحضارة التي تصنع منتجاتها، وعليه فالمجتمع الذي لا يصنع أفكاره لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتوجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتوجات الضرورية لتصنيعه. وإنّ العلاقة بين الحق والواجب هي التي ترسي القواعد الأساسية لجميع ميادين التطور في المجتمع. والعلاقة "واجب-حق" تضعنا أمام علاقة اقتصادية "إنتاج-استهلاك"، فكلّما أدّى المجتمع واجباته زاد الإنتاج، وكلّما زاد الإنتاج تمتّع الاقتصاد بالوفرة والرفاهية واستفاد جميع أفراد المجتمع بهذا الخير[2].

المبحث الثّاني: قراءة مالك بن نبي لمناهج التغييرونقده لها:

المطلب الأول: قراءة مالك بن نبي لمناهج التّغيير:

أولا: اختلاف مناهج التغيير:

اختلف زعماء النهضة الإسلامية في المناهج التغيرية بعد أن جمعتهم الآيات القرآنية التي تدعو إلى التغيير، فمنهم من ركّز على إصلاح السياسة والمؤسسات، ومنهم من ركّز على إصلاح العلم والتعليم، ومنهم من ركّز على التزكية ومجاهدة النفس، وقلَّ أن نجد منهم من ينظر إلى الأمور بنظرة شمولية، ويجمع بين الجانبين الفكري والعملي[3].

بل ونجد منهم من يعتقد أنَّ التغيير لا يكون إلا عن طريق العنف، في حين أنَّ النهضة بناء متكامل يستند إلى العلم والتكنولوجيا والأخلاق، فكيف نجمع بين مقتضيات هندسة البناء المحكمة وبين متطلبات الهدم الذي يسببه العنف مع ما يترتب عنه من عداوة؟[4]

---

[1] انظر، قادة بحيري، محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2006م.

[2] انظر، المرجع نفسه.

[3] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص77.

[4] المرجع نفسه، ص78.

نجد مالك بن نبي في طريقته لدراسة مناهج التغيير يدعو إلى تصفية العادات والتقاليد والإطار الخلقي والاجتماعي مما فيه من عوامل قتالة ورمم لا فائدة منها حتى يصفو الجو للعوامل الحية والداعية إلى الحياة، وتكون التصفية حتما بفكر جديد، يحطم ذلك الوضع الموروث عن فترة تدهور مجتمع يبحث عن وضع جميل ويخلص إلى ضرورة تجديد الأوضاع بطريقتين:

- الطريقة الأولى: سلبية تفصلنا عن مناصب الماضي، وهي ضرورية للنهضة الإسلامية.
- الطريقة الثانية: إيجابية تصلنا بالحياة الكريمة[1].

ثانيا: طريقة تشخيص الغاية من التغيير ومشكلات المجتمع وتحديد الوسائل:

لقد وقعت حركة النهضة الإسلامية في خطأ التكديس عندما اتجهت نحو تكديس الأشياء، ممّا أدّى إلى تعثّرها وعدم تحقيق النتائج المرجوة، وأسباب هذا التعثّر تكمن في العوامل التالية:

- عدم تشخيص غاية النهضة بصورة واضحة.
- عدم تشخيص المشكلات الاجتماعية تشخيصًا صحيحًا.
- عدم تحديد الوسائل تحديدًا يناسب الغاية المنشودة والإمكانيات[2].

ويرى ابن نبي أنّه لا أن يتغيّر الإصلاح نفسه فيتّجه إلى المنهج الحركي الشمولي، خاصة وأنَّ الإصلاحيين عموما ابتعدوا عن التخطيط الذي يعالج التغيير من خلال هدف واضح أو برنامج موضوعي وانشغلوا بقضايا فرعية أو جزئية، كسعي محمد عبده ومن بعده -إقبال- بإصلاح علم الكلام، وسعي الأفغاني لإصلاح الحكم، وانشغال الكواكبي وأرسلان وأحمد رضا بمسائل دفاعية، كل ذلك في نظر ابن نبي ابتعد عن جوهر المشكلة التي هي التخلف، وبالتالي أهمل عملية تربية المجتمع باتجاه إعادة بناء شبكة العلاقات الاجتماعية، وتحويل الشروط الواقعية للمجتمع نحو تحقيق التقدم. ويتأسف ابن نبي لكون هذه الجهود الذهنية لم تترجم في صورة مذهب دقيق للنهضة ومنهج منسجم للتغيير، فظلّت تنطلق في صورة شعلات دفاعية أو جدارية؛ ولهذا كان يعيب على هذه الجهود افتقارها إلى النظرة الشمولية[3].

ثالثا: تفادي الأفكار المميتة والأفكار القاتلة في عملية التغيير:

يرى ابن نبي أنه يمكن تصنيف الحركات التغيرية في العالم الإسلامي إلى صنفين رئيسيين:

---

[1] المرجع نفسه، ص78-79.

[2] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص79.

[3] المرجع نفسه، ص80.

1. اتجاه يرمي إلى الحفاظ على الأفكار القديمة حتى وإن كانت ميتة.
2. واتجاه يسعى إلى استنبات الأفكار المستوردة حتى وإن كانت قاتلة.

1_ الأفكار الميتة: ويمكن إيجاز خصائصها فيما يلي:

- أفكار موروثة من عصر ما بعد الموحدين.
- أفكار تعبّر عن القابلية للاستعمار.
- خطرها علينا أشد من خطر الأفكار القاتلة[1].

2_ الأفكار القاتلة: ويمكن إيجاز خصائصها فيما يلي:

- أفكار مستوردة من الغرب ومستعارة منه.
- أفكار ناتجة عن الاستعمار.
- يتبناها سطحي التفكير: وهو أحد رجلين: إما الطالب المجتهد المنغمس في الجانب التجريبي النظري من الحضارة الغربية، أو السائح المهتمّ بالجانب الذي تتحلّل فيه الحضارة إلى مخلّفات قاتلة، فطلبتنا وسيّاحنا لا يذهبون إلى المصنع الذي تصنع فيه الحضارة وتولد فيه، لكنهم يذهبون إلى الأماكن التي تتأثّر فيها عندما تفقد الحياة ولا تعطيها[2].

ويعتقد مالك بن نبي أنَّ محاولة إحياء العالم الثقافي المشحون بالأفكار الميتة بالاستعانة بالأفكار القاتلة المقتبسة من حضارة أخرى مأساة كبرى، وأنَّ تصفية الأفكار الميتة وتنقية الأفكار المميتة يعتبر الأساس الأول في أي نهضة حقّة. فالواجب علينا أن تتعامل مع التراث الحيّ دون الميت، ومع المقتبس المثري دون القاتل، وأن نعي الفرق بين صحة الفكرة وصلاحيتها وهي تخوض عملية التغيير الاجتماعي وخوض المعترك الحضاري من جديد[3].

رابعا: السّمات المرضيّة التي سادت الثقافة الإسلامية المعاصرة وانعكاساتها السلبيّة على مناهج التغيير:

[1] المرجع نفسه، ص87.

[2] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص88.

[3] المرجع نفسه، ص89.

سجَّل مالك بن نبي بعض الظواهر السلبية للفكر الإسلامي المعاصر، وبيّن بعض الانعكاسات السلبية لمناهج التغيير، فلا يكاد يخلو منهج من مناهج التغيير من هذه السمات المرضية، غير أنَّ هذه المناهج تتفاوت قلّة وكثرة فيها، ومن بين أهمّ تلك السمات والسلبيات ما يلي:

- **اللفظية:** فالتربية التقليدية تتسم بالطابع الأدبي الكلامي، ويفرق ابن نبي بين الكلمة الفعّالة والثرثرة التي تضعف القدرة على تقدير الأمور التقدير الصحيح[1]. ومن أعراض هذا الدَّاء: إجادة الكلام والهيام بالألفاظ، ووجود فجوة بين الكلام والعمل، والشهوة إلى الكلام وعدم الاهتمام بالعمل، واستبداد الألفاظ والتفسير السطحي للنهضة، وتقديم المعلومات على الدور الاجتماعي، وإفراغ الكلمات من مضامينها بحيث لا تنبئ عن عمل ونشاط، فتصير مجرد ألفاظ مرصوفة، فيفقد بذلك الكلام قدسيته وعلاقته الجدلية مع الفكر والعمل[2]. ولهذا يقول ابن نبي: "والغرام بالكلمات أعظم خطرًا من الغرام بالمعدن أو الرخام أو الحجر، فهو يؤدي أولا وقبل كلّ شيء إلى أن يفقد الإنسان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح، وهو أمر لازم لكلّ جهد إيجابي من البناء"[3].
- **الفخر والمديح:** إنَّ استخدام نزعة المديح وأدب الفخر والتمجيد كوسيلة للتغلب على مركّب النّقص الذي اعترانا إزاء سلطان الثقافة الغربية يعتبر وسيلة للتخدير والتسلية، تعزل الفكر والضمير عن الشعور بالمتاعب الحقيقية[4]. ولهذا يقول ابن نبي: "حين اتجهت الثقافة إلى امتداح الماضي أصبحت ثقافة أثرية، ولا يتجه العمل الفكري فيها إلى الأمام، بل ينتكس إلى الوراء، وكان هذا الاتجاه الناكص المسرف سببًا في انطباع التعليم كلّه بطابع دارس لا يتّفق ومقتضيات الحاضر والمستقبل، وبذلك أصيبت الأفكار بظاهره التشبث بالماضي، كأنما قد اصبحت متفائلة"[5]. فهو ينقد نزعة الفخر والمدح التي تنتج الكف عن تعليل شرائط الحياة أو عن التفكير في هذا التعديل، فيتجمّد الفكر وتنتج ثقافة أثرية تكتفي بالماضي من أجل تمرير ضعفه وإفلاسه وانحطاطه، لكنه منصف إذ يرى أنه إذا كان من الخيانة للحقيقة أن نصرف في الحديث عن أنفسنا، فمن الخيانة لها أيضًا أن نجهل قدر أنفسنا فنقلّل من شأنها[6].

---

[1] المرجع نفسه، ص41.

[2] المرجع نفسه، ص84.

[3] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص60.

[4] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص84.

[5] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص62.

[6] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص41-42.

- **الجدلية والتبرير:** يعتبر الميل نحو الجدال هو الطابع الطاغي على الأعمال الأدبية والعلمية في عصر الانحطاط وعصر النهضة، فالمتجادلون لا يبحثون عن حقائق وإنما عن براهين، ولا يستمع المجادل إلى محدثه بل يغرقه في طوفان من الكلام، كما أنَّ المثقف يهتمّ بالدفاع عن المجتمع وتبريره عوض تحويله وتغييره، دون أي اهتمام بالتخطيط الاجتماعي. ولقد ظلّت هذه النزعة تسود ثقافتنا بشكل عطّل تحوّر العمل الثقافي إلى عمل مخطط وتصميم يبلور مذهبا في التغيير الاجتماعي[1]. ويذهب ابن نبي إلى أنَّ هذه النزعة كانت ترمي إلى مهر المجتمع الإسلامي بالوسائل الملائمة للدفاع عن ذاته أو لتبرير نفسه، بدل أن تقوم بتحويل الشروط الواقعية والأساسية لهذا المجتمع[2].
- **الشيئية والتكديس:** تتمثّل هذه النزعة في الولع بالأشياء وتكديسها عوض الرقيّ إلى عالم الأفكار لصنعها، فهي لا تجعل من الفكرة وسيلة للنشاط الاجتماعي أو الثقافي أو الاقتصادي، وشبكة عقلية يقوم عليها هذا النشاط، بل هي مجرد حلية أو طرف زائد، ولقد كانت هذه النزعة سببًا للطفولة غير المنتهية للعالم الإسلامي، والتي بدأت منذ عصر النهضة، وبجانبها نجد طفولة المجتمع الياباني الحديث قصيرة جدا؛ لأنه دخل بسرعة في عالم الدول العظمى[3]. ولهذا يقول ابن نبي: "ومن أجل الدفاع عن المجتمع الإسلامي كانت المشاكل توضع ضمن حدود كمية، أي: باعتبار كميات الأشياء الضرورية"[4].
- **الأدبية أو "الرومانسية"**: فالنزوع الشعري القائم على النواحي الجمالية والبديعية ما هو إلا وسيلة تخفي مواضع النقص والاختلال، وهو نزوع يعانق نزعة المديح والحرفية التي تتعاون على ستر مواطن العجز بأردية من البلاغة[5]. ولا شك أنَّ تخليص الثقافة من نزعة الخيال معناه طرحها في مواجهة الواقع ومشاكله بعيدًا عن الخرافية والجبرية والرومانسية، واتباع السبل الواقعية والعلمية، والصيغ العملية المناسبة[6].
- **الاضطراب السلوكي**: فالثقافة الغربية أوقعت مجتمعنا في حالات من الاضطراب الفكري والسلوكي، جعلنا ممزّقين بين الأفكار الميتة الموروثة، والأفكار القاتلة المستوردة، فعوض أن

---

[1] المرجع نفسه، ص84.

[2] مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964م، ص55.

[3] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص85.

[4] مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ص62.

[5] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص62.

[6] مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ص59.

نصفي تلك وننفي هاته لإيجاد صيغة تخدم منهجية التغيير تجدنا في حيرة من أمرنا أصبحت مرضية[1].

- **الاضطراب العام الذي يسود التفكير الإسلامي:** فبعد قرابة نصف قرن من الإصلاح ومحاولة التكيّف مع الأسلوب الغربي إلا أنَّ شكل النهضة الإسلامية الراهن هو خليط من الأذواق، ومن المحاولات، ومن التذبذب دون أدنى مقياس أو نقد، ومن مواقف التديّن أيضًا، فهي في الواقع قد اختارت الطريق الذي يقضي لها ما تريد من أشياء وحاجات، دون أن تبحث عن الأفكار والوسائل[2].
- **التجزيئية أو "الذريّة":** وهي نزوع الفرد إلى تجزئة المشكلة واعتبار الوقائع والأحداث مجزأة على أنها مجرد أكوام لا تنطوي على قانون أو نتيجة عامة، فهي مجموعة من التفاصيل المعطاة في وضع لا يبرز بالتحديد نوع مشكلة وحلها، فلا لا تسلك سبيل التكامل بانتهاج التركيب المتآلف[3].
- **ذهان السهولة والاستحالة:** حيث يشملان حركة التغيير فيكبّلان الأيدي حتى لا تستغل ما في حوزتها للخروج من ورطتها، ولهذا يقول مالك ابن نبي: "طالما بقي الفكر عاطلًا منعدم التأثير بقي النشاط حركة فوضى، وتزاحمًا يبعث على الضحك والرثاء، وليس هذا سوى شكل من أشكال الشلل الاجتماعي"[4]. ويصل ابن نبي إلى النتيجة التالية: "هذان الشكلان من أشكال الخيانة يتمثل في العالم الإسلامي الحديث في صورة نوعين من الذهان: فإمّا أن يتمثّل في صورة النظر إلى الأشياء على أنها سهلة، وهو قائد ولا شك إلى نشاط أعمى... وإمّا أن يأخذ صورة النظر إليها على أنها مستحيلة فيصاب النشاط بالشلل"[5].

المطلب الثاني: نقد مالك بن نبي لمناهج التغيير:

يرى مالك بن نبي أنَّ دعاة الإصلاح والمحدثين كلّ منهما قد وقع في الخطأ من حيث أنهما لم يتّجها إلى مصدر إلهامهما الحقّ، فالإصلاحيون لم يتّجهوا حقيقة إلى أصول الفكر الإسلامي، كما أنَّ المحدثين لم يعمدوا إلى أصول الفكر الغربي، غير أنَّ الأستاذ مالك الذي يؤثر الحركة الإصلاحية على الحركة الحديثة؛ لأنَّ الحركة الإصلاحية لم تضيع هدفها الجوهري، فاختارت أن تطالب بأن يؤدّي كلّ واجبه، في حين جنح المحدثون إلى

[1] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص85.

[2] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص82.

[3] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص86.

[4] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص92.

[5] المرجع نفسه، ص94.

نغمة المطالبة بالحقوق، وانعدم لديهم فكرة النهضة ذاتها، بل ليس للحركة الحديثة في الواقع نظرية محددة، لا بأهدافها، ولا في وسائلها، والأمر بعد هذا لا يعد أن يكون غرامًا بالمستحدثات، لتحوّل المسلم الى زبون مقلّد، لا إلى تلميذ يتعلّم كيف يبتكر[1].

أولا: نقده لمنهج التغيير السياسي:

فمالك بن نبي لا يوافق جمال الدين الأفغاني وزعماء الحركة الحديثة الذين انعدمت لديهم فكرة النهضة ذاتها فأصبحت ثانوية؛ فهم لم يخالطوا الحياة في بلدانهم إلا في الميدان السياسي، فالمسألة لديهم لم تكن مسألة تجديد العالم الإسلامي وتغييره وبعثه، وإنما كان هدفهم انتشاله من فوضاه السياسية القائمة، وهذه فكرة مستعارة لا ترى في الواقع مشكلة الفرد المسلم، بل مشكلة النظم الأوروبية فاعتقدوا أنه يمكن تخليص المجتمع مما هو فيه بالقضاء على ما يحيط به من نظم وقوانين، بدلا من أن ينصرفوا إلى دراسة العوامل الداخلية التي أدَّت إلى هذا الوضع[2].

ثانيا: نقده لمنهج التغيير عن طريق إصلاح العلم:

فمالك بن نبي لا يوافق -أيضًا- محمد عبده وزعماء الإصلاح في اعتقادهم أنه يجب أن يبدأ الإصلاح من الفرد ويكون تغيير النفس بإصلاح علم الكلام، كما لو كان المسلم فاقدًا لعقيدته، لكنَّ الواقع أنَّ المؤمن متشبّث بدينه وعقيدته، غير أنَّ عقيدته قد جرّدت من فاعليتها وإشعاعها الاجتماعي، وتغيير النفس معناه: إقدارها على أن تتجاوز وضعها المألوف، وليس هذا من شأن علم الكلام، بل هو من شأن منهج التصوف، بل من شأن علم جديد هو "علم تجديد الصلة بالله"، الكفيل بتوفير الدافع الداخلي لدى جماهير الشعب، تلك الجماهير المتعطشة إلى انتفاضة القلب، كي تنتصر على ما أصابها من خمود[3].

مع أنه يرى ضرورة العناية بمضمون اللغة وصياغتها على النحو الذي يتم فيه تقدير أهميتها في مسألة التغيير، وإعادة النظر في مناهج التعليم، وأهداف اكتساب العلم في ضوء الهدف المركزي المتمثّل في صناعة الإنسان الجديد، وتغيير معادلته الشخصية الراكدة[4].

---

[1] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص43.

[2] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص90.

[3] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص55.

[4] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص99.

ثالثا: نقده لمنهج التغيير المؤسسي:

اهتمَّ ابن نبي بدراسة منهج النخبة التي تكونت في المدارس الغربية، وكان لها ضلع في إصلاح المؤسسات السياسية، خاصة الأحزاب والزعماء الذين يركزون على المطالبة بالحقوق ويغفلون المطالبة بأداء الواجبات، وهي بذلك قد خلفت أنصار بعض الطرق الصوفية، وعوّضت التّمائم بأوراق الانتخابات، ووضعت الزعيم في مكان شيخ الطريقة، ولكنّ هذه الحيلة الماكرة لم تنطل على الشعب فميّز بين السياسة الحقّة وصورتها المزيفة[1]. ولهذا يقترح ابن نبي عدة اقتراحات، منها: تنمية الشعور بالواجب كقيمة أخلاقية على مختلف الأصعدة، ومحو العادات والأفكار التي من شأنها أن تتجه للمطالبة بالحق قبل أداء الواجب، وتحرير العقول من الانسياق وراء منطق السهولة، وإدخال مفهوم الواجب في منهج تربوي يهدف إلى تقويم جديد في ضمير كل مواطن وبالأخص كل زعيم؛ لأنّ عملية البناء السياسية لدولة ناشئة تحتاج إلى الأساس التربوي[2].

رابعا: نقده لمنهج التغيير الروحي:

يعتقد ابن نبي أنَّ التصوّف السّلبي الذي قاد إلى دروشة بعض الطرقيين عاجز عن تزويدنا بالأساس الضروري للإصلاح عندما نحث جهودنا إلى النهضة، إذ يقصر همّه على تطهير الفرد من الخطايا، في حين يرمي الإصلاح إلى توفير الدافع الداخلي للإقلاع الحضاري الذي يجده في نوع آخر من التصوف وهو "تجديد الصلة بالله"[3]، ولهذا يذكر ابن نبي أنه يجب علينا تحصين مسارنا الحضاري من نوعين من الأخطار تهدد شبكة العلاقات الاجتماعية التي تعين الإنسان على أداء نشاطه المشترك: وهما الماديّة والتصوف السّلبي الذي يقطع العلاقات بهذه الدنيا، فالأولى تهدم الروح، والآخر يهدم الوسائل، وكلاهما خيانة للمجتمع، فالخيانة الأولى تخلق الفراغ الاجتماعي حين تهدم المبادئ والأخلاق والروح، يعني الأمور التي تبقي للمجتمع القدرة على مواصلة نشاطه المشترك في التاريخ، والخيانة الثانية تخلق الفراغ حين توجه جميع الملكات المبدعة وجميع الفضائل الأخلاقية في المجتمع خارج عالم الوقائع والظواهر، فإحداهما تجهل أوامر السماء، والأخرى تجهل مقتضيات الأرض، وكلتاهما تفضي إلى الفراغ الاجتماعي، حيث تغور الروح، وتغور معها وسائل الحضارة[4].

---

[1] المرجع نفسه، ص92-93.

[2] مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الفكر، دمشق، 1978م، ص28-34.

[3] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص93-94.

[4] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1991م، ص97-98.

خامسا: نقده لمنهج التغيير العنيف:

يعتقد ابن نبي أنّ منهج التغيير بالعنف قاصر؛ لأنه لم يعالج جوهر المشكلة الاجتماعية، واشتغل بقضايا عرضية كإصلاح الحكم والقانون، ولأنه بدل أن يترجم الجهود الذهنية في صورة مذهب دقيق للنهضة ومنهج منسجم ذهب يقود حملات دفاعية[1].

ولهذا كان يتمنّى ابن نبي لو أفضت مجهودات الأفغاني إلى ثورة حقيقية؛ لأنّ الثورات تخلق قيمًا جديدة صالحة لتغيير الإنسان، ومع ذلك فإنه كان يفضل الأساليب التي لا تدعو إلى التغيير العنيف، وكانت حالته تدلّ على ذلك، فهو يدعو إلى البناء في ندواته وسائر أعماله وملتقياته[2].

سادسا: نقده لمنهج التغيير عن طريق التربية المنظمة:

أُعجب ابن نبي بمنهج حسن البنا العام فكان كثير الذكر له ولمعالم منهجه، ويعود هذا الإعجاب إلى أسباب عدّة، منها:

- أنه أدرك عيوب الإصلاح فتداركها، وعمل على استعادة الوظيفة الاجتماعية للدين.
- أنه جدّد القيمة القرآنية في ذاتها، فأصبحت قيمة نشطة، ووسيلة فنية لتغيير الإنسان.
- مناداته للمؤاخاة بصفتها عملا أساسيا به يصبح الناس إخوة.
- أنّ هذا العمل البسيط هو في الواقع تغيير شامل للإنسان، والفكرة تركيب نشط للفكر والعلم، وهذان الأمران يقوم عليهما كلّ تطوّر في المجتمع[3].

سابعا: معالم منهج تغييري جديد:

من الأفكار الأساسية التي دعا إليها ابن نبي -وتعتبر معالم منهج تغييري جديد- أنَّ الحضارة الغربية التي فقدت معنى الروح تجد نفسها على حافة الهاوية، وعليه فنهضة العالم الإسلامي تكون في الجمع بين العلم والضمير، بين الخلق والفن، بين الطبيعة وما وراء الطبيعة، حتى يتسنّى له أن يشيّد عالمًا طبقًا لقانون أسبابه ووسائله، وطبقًا لمقتضيات غاياته، حتى يتمكّن من خلافة الحضارة الغربية العجوز، وأنّ الذي سيردّ إلى العالم شبابه لابدّ أن يكون إنسانًا جديدًا قادرًا على حمل مسؤولياته ماديًّا وروحيًّا، كممثل وشاهد، والعالم الإسلامي له قدر كبير من هذا الشباب الضروري الذي يتمثّل في تمسّكه بالقيم الخلقية،

[1] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص90.

[2] المرجع نفسه، ص95.

[3] المرجع نفسه، ص94.

وهو من جهة أخرى يخطو إلى تجديد نفسه بفضل ما في يديه من قيم حديثة، ولا شكَّ أنَّ هذا الامتزاج بين الروح والمادة سيزداد سرعة كلّما تعوّد على مواجهة المشكلات بفكر علمي، هذا الفكر العلمي الذي يعجّل حركة التاريخ، فالإنسان الجديد والمواطن العالمي المفعم بالشحنات الإيمانية هو القادر على خلافة الإنسان الأوروبي الشائخ، وعلى تخليص العالم من حمأة المادية التي أوقعته فيه أوروبا[1].

ويشير إلى أنّ غرس قيمة الفعّالية في المجتمع هي من أوليّات هذا المنهج الجديد في التغيير، فكلّ حقيقة لا تؤثر على الثالوث الاجتماعي: الأشخاص والأفكار والأشياء هي حقيقة ميتة، وكلّ كلمة لا تحمل في طيّاتها نشاطًا معيّنًا هي كلمة جوفاء، كلمة ميتة مدفونة في القواميس. وإنَّ التربية الاجتماعية بصفتها الأداة المفضّلة للتغيير لا تعني شيئا إذا لم تكن وسيلة فعّالة لتغيير الإنسان الذي لم يتحضّر بعد، أو الإبقاء على الإنسان المتحضّر في مستوى وظيفته الاجتماعية وأهدافه الأساسية، وأن تعلّم الفرد كيف يتحضّر، ويعيش مع أقرانه، ويتعامل معهم، وكيف يكوّن معهم مجموعة القوى التي تغيّر شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، وكيف يكوّن معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدّي نشاطه المشترك في التاريخ[2].

وعلى هذا فالثقافة لا تكتسب أهميّتها إن لم تخلع على التربية الاجتماعية المضمون الضروري الذي يتيح لها الاضطلاع بوظيفتها المغيّرة[3].

الخاتمة

الحمد لله أن وفقنا في هذا البحث الموجز للتعريف بمشروع التغيير ومركزيّته في التّنمية عند مالك بن نبي، وقد خلصنا إلى نتائج كثيرة، أهمها ما يلي:

1_ أنَّ مالك بن نبي كان مدركًا لمعنى التغيير وشروطه ومناهجه، وأنَّ فقه التّغيير عنده يكمن في تغيير جوهر الإنسان وتجديد صلته بالله تعالى، وهو الشرط الجوهري والمنطلق الأساس لكل تغيير اجتماعي رشيد.

2_ ضرورة بناء الإنسان مستخدمًا معادلة التراب والزمن والمواهب في تحقيق التنمية، مع مراعاة مرتكزات تغيير الإنسان -فكريًّا وعمليًّا وماديًّا-.

---

[1] مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص190-191.

[2] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص100.

[3] عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص96.

3_ شخّص مالك بن نبي حال الأمة الإسلامية فذكر معظم السّمات المرضيّة التي سادت الثقافة الإسلامية المعاصرة وانعكاساتها السلبيّة على مناهج التغيير، ووصف العلاج لها والمتمثّل في التخلّي عن مثل هذه المظاهر وتفادي كلّ الأفكار المميتة والأفكار القاتلة للفرد والمجتمع.

4_ نقد مالك بن نبي مناهج التغيير المختلفة بدءًا من التغيير السياسي، والتغيير بإصلاح العلم، والتغيير المؤسساتي، والتغيير الروحي، والتغيير العنيف، والتغيير المنظم، ودعا إلى منهج تغيير جديد يجمع إيجابيات كلّ هذه المناهج ويتجنّب سلبياتها.

وأمَّا التوصيات، فأهمّها ما يلي:

1_ ضرورة الاهتمام بتراث الأستاذ مالك بن نبي كلّه، ودراسته دراسة علمية دقيقة عميقة، ومقارنة أطروحاته الفكرية بأطروحات غيره من العلماء والمفكرين القدامى والمحدثين على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم.

2_ ضرورة إنشاء مراكز بحثية رسمية متخصصة في دراسة فكر مالك بن نبي وتفعيله، وتجديد فكره وتطويره بما يتماشى مع معطيات هذا العصر، كما أنها تحاول تجسيد أفكاره في أرض الواقع، ومتابعة مدى تطبيق نظرياته ومعايير الجودة العالمية في تحقيق التنمية المستدامة في كافة المجالات الحياتية.

قائمة المصادروالمراجع

1- بدر الدين زواقة، سؤال النهضة بين شروط مالك بن نبي وقانون جاسم سلطان مقاربة في نظريات واستراتيجيات التغيير الاجتماعي، أعمال المشروع الفكري للشيخ محمد الغزالي، جمع وإعداد: عتيقة نابتي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مركز الشهاب للبحوث والدراسات، الجزائر، الوطن اليوم.

2- سليمان الخطيب، رؤية حضارية للمجتمع الإسلامي المعاصر عند مالك بن نبي، ملتقى الفكر الإسلامي الثالث والعشرين، تبسة.

3- سيد قطب، في ظلال القرآن، ط17، دار الشروق، القاهرة، 1412ه.

4- عبد الرحمن الطيبي، سؤال النهضة وإشكالية الاستدراك الذاتي مقاربة مدرسة المقاصد، مجلة المقدمة الجزائرية، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، العدد الأول، نوفمبر 2017م.

5- عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ط2، عالم الأفكار، الجزائر، 2007م.

6- عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، مكتبة 30 تموز، العراق، 1985م.

7- قادة بحيري، محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي، ط1، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م.
8- مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ترجمة الطيب الشريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964م.
9- مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الفكر، دمشق، 1978م.
10- مالك بن نبي، حديث في البناء الجديد، المكتبة العصرية، بيروت، 1959م.
11- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة مسقاوي وشاهين، ط3، دار الفكر، 1969م.
12- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1991م.
13- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط1، مصر.
14- هشام شراد، فقه الواقع العالمي في فكر مالك بن نبي، الملتقى الدولي الثالث: فقه الواقع المستقبل التجديد في النهضة الإسلامية، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سطيف، مركز الشهاب للدراسات الإسلامية، سطيف.